الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

المصطلح الصوتي بين علماء اللغة وعلماء التجويد

How Linguists and Tajweed Scholars Conceived Arabic Phonetic Terminology

Dr. Amina Souad BOUANANI
Oran 1 University -Algeria-

د.بوعناني سعاد آمنة
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة -الجزائر-
bouananiam@yahoo.com

ملخص

يناقش هذا البحث نشأة المصطلح الصوتي وطبيعته انطلاقا من البيئة التي نشأ فيها، باعتبار المصطلح أساس نشأة كل العلوم على اختلافها. كما تناول طبيعة المصطلح الصوتي بين الاتفاق والاختلاف عند علماء اللغة وعلماء التجويد، وبخاصة في صفات الأصوات إذ نجد كل فريق يعتمد أسسا مرة متقاربة وأخرى متباعدة في استعمال المصطلحات.

فقد كان المصطلح الصوتي منذ بدايته ماديا، حيث نشأ مع بداية الدراسة النحوية، فقد كانت الغاية نحوية لا صوتية؛ ويفسر هذا الغاية من البحث والدرس اللغوي الأول. ومع ذلك كان الاهتمام بالمصطلح الصوتي مبكرا لأن البحث فيه بدأ بوصف الأصوات وطرق نطقها، وكان ذلك جزءا من الدراسة اللغوية نفسها.

ويركز البحث أيضا على أوج الدراسة الصوتية التي كانت في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة، وهي الفترة التي طفت فيها الموسوعية والتخصص، وقد تجلى ذلك في ولادة المصطلح المتخصص وتوظيفه.

الكلمات الدالة: صفات الأصوات، الصوت، المصطلح الصوتي، الصور الصوتية، المخارج.

Abstract

This paper discusses the emergence of Arabic phonetic terminology in terms of the environment in which it originated, since terminology is the basis of any scientific discipline. It also tackles the nature of the phonetic terminology as conceived by ancient Arab linguists and tajweed scholars, particularly regarding sound aspects, where linguists and tajweed scholars had sometimes convergent and other time divergent standards in the use of phonetic terms.

Keywords: *Sound trait, sound, sound terminology, sound images, articulation of sounds.*

مقدمة

تعتمد العلوم كلها في استقلاليتها على شقين اثنين؛ يتعلق الشق الأول بالمنهج، والثاني بالمصطلح الذي يعد دعامة العلوم وخاصيتها التي تطبعها. ويعتبر المصطلح الصوتي أحد الأسس التي تميز علم الأصوات عن بقية العلوم اللغوية الأخرى.

وتكمن أهمية الصوت في كونه يمثل المستوى الأول في تشكيل اللغات والتواصل بها، بل يشترك الصوت ويحضر في كل المستويات البحثية اللغوية الأخرى. وقد تنبهت الدراسات العربية وما سبقها بأهمية الصوت والدراسة الصوتية.

تاريخ الدراسة الصوتية العربية

لقد انطلقت الدراسة الصوتية مع بداية الدّرس اللّغوي عامة، والعناية به، والتّنبه له كان قبل النّحو وعلومه. وكان من بواعث هذا الاهتمام ظاهرة اللحن الذي يعد أحد الأسباب الأساسيّة في الدّرس الصّوتي العربيّ. فقد انتبه العرب لوجود اللّحن قبل الإسلام، لأنهم ألفوا بعض الموالي الّذين عاشوا بينهم ولم يتقنوا نطق أصواتهم، وهذا لافتقار لغتهم الأصلية لأصوات اللّغة العربيّة، ثم لصعوبة إخراجها والإلمام بصفاتها. وبانتشار الإسلام ودخول الأعاجم في هذا الدّين الجديد زاد انتشار اللّحن الصّوتي[1].

رغم هذه الأهمية إلا أن الدراسة الصوتية عاشت في كنف الدراسة اللغوية تابعة لها في البحث والتأليف، إذ لا نكاد نجد دراسة صوتية مستقلة في مؤلف مستقل. ويعد كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني أول كتاب مستقل في الأصوات. فقد نظر ابن جني إلى الصوت نظرة مختلفة عمن سبقوه، إذ يكفيه أنه عرف اللغة من خلال الصوت؛ ومع ذلك فإن عمل ابن جني [2] لا يجب جهد السابقين، لأن الدراسة اللغوية نفسها بدأت صوتية مع أبي الأسود الدؤلي [3]، ثم الخليل بن أحمد [4] في معجمه العين، ومن بعده سيبويه [5] في الكتاب.

وتظهر أهمية ما قدمه الأوائل في أبحاثهم من خلال قدرتهم الفائقة على التوصيف الذي يسبقه فهم وقدرة على استيعاب المفهوم من أجل صناعة المصطلح. فهذاّ أبو الأسود الدّؤلي (ت 69هـ) كان أوّل من استعان بالشّفاه في نقط المصحف الشّريف، إذ قال لكاتبه: » إذا رأيتني لفظت بالحرف، فضممت شفتي فاجعل أمام الحرف نقطة، فإذا ضممت شفتي بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني قد كسرت شفتي فاجعل أسفل الحرف نقطة، فإذا كسرت شفتي بغنة فاجعل نقطتين، فإذا فتحت شفتي فاجعل على الحرف نقطة، فإذا فتحت شفتي بغنة فاجعل نقطتين» [6].

ويستشهد بهذه المقولة في كونها تحمل بدايات نشوء المصطلح اللغوي واستقراره، بل تحمل أيضا أصل المصطلح اللغوي عامة والصوتي بخاصة على أنه ماديّ أكثر من كونه عقلي أو تجريدي، ممّا لا يفتح مجالا للتشكيك في جهود الأوائل في صنع وبناء الدراسة الصوتية.

وتطور الدرس الصوتي عبر القرون الأولى مع الدرس اللغوي؛ وقد يتفق الكثير من الدارسين معنا في أن الأصوات تجمع العلوم اللغوية كافة من حيث أنها تود الانفصال. لكنها تجمع أكثر بين الدراسة الصوتية للأصوات اللغوية والدراسة الصوتية النطقية لها عند علماء التجويد.

أسباب الاهتمام بالدراسة الصوتية من قبل علماء اللغة وعلماء التجويد

ويلتقي علماء اللغة وعلماء التجويد في الاهتمام بالأصوات، وإن تأخر علماء التجويد عن علماء اللغة في ذلك بأكثر من قرن و نصف من الزمان [7]. وربما يعود ذلك لدوافع كل فريق في دراسة أصوات العربية، إذ تطالعنا المصادر اللغوية القديمة أنه من بين أسباب دراسة الأصوات العربية في مجملها تصحيح النطق، ومحاولة رفع درجة الفصاحة عند الأعاجم، ولا يخرج هذا كله أبدا عن نطاق خدمة كتاب الله العزيز الحكيم. ويكمن الفرق بين علماء اللغة وعلماء التجويد في كون دراسة علماء التجويد للأصوات ترتبط « بشكل أساسي بمعالجة ما سموه باللحن الخفي، فقد قسموا اللحن إلى قسمين هما: اللحن الجلي، وهو الخطأ الظاهر في الحركات خاصة، وقالوا: بأنه ميدان عمل النحاة والصرفيين. واللحن الخفي وهو الخلل الذي يطرأ على الأصوات من جراء عدم توفيتها حقوقها من المخارج أو الصفات أو ما يطرأ لها من الأحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق، وقالوا بأن هذا هو ميدان عمل علماء التجويد» [8].

اللحن الخفي

وكان لتفشي اللحن في تلاوة القرآن مدعاة لتأليف بعض علماء التجويد لكتبهم، مثل ما قام به عبد الوهاب القرطبي الذي يجعل غاية كتابه الموضح توضيح اللحن الخفي المتسرب للناشئة، فقد كان ذلك الدافع إلى تأليف كتابه الموضح، يقول: «ولما رأيت الناشئين من قرأة هذا الزمان وكثيرا من منتهيهم قد أغفلوا اصطلاح ألفاظهم من شوائب اللحن الخفي، وأهملوا تصفيتها من كدره و تخلصها من درنه، حتى مرنت على الفساد ألسنتهم، وارتاضت عليهم طباعهم، وصار لهم عادة،بل تمكن منهم تمكن الغريزة» [9].

وكان أساس دراسة علماء التجويد للأصوات تحديد اللحن وأنواعه وتبيين الخفي منه، وترجع فكرة هذا التقسيم إلى ابن مجاهد (324هـ)، وتبناها من جاء بعده من علماء التجويد مع بداية القرن الخامس للهجرة، أمثال الداني والذي يستشهد بكلام ابن مجاهد في كتابه التحديد [10]، والقرطبي في الموضح قوله: «...أذكر فيه معنى اللحن موضوع اللغة، وحده، وحقيقته في العرف والمواضعة، والسبب الذي من أجله علق بالألسنة وفشا في كلام العرب، وأبين ما المقصود بالتنبيه عليه ...وأبعث على تجويد القراءة بذكر ما يستقبح منها ويستحسن ويختار منها ويستهجن» [11]، ويشير مكي بن أبي طالب إلى ذلك دون استعمال اللفظ يقول:«فيجب على كل من قرأ بأي حرف من

السبعة أن يأخذ نفسه بتحقيق اللفظ وتجويده...فيسلم حينئذ من التقصير في لفظه، ويأمن من التحريف في قراءته السلامة من الخلل، والبعد من الزلل» [12].

ويكون القيسي[13] بهذا قد ابتعد عن ذكر اللحن الخفي والخوض في معانيه ومصطلحاته، لربط التجويد والتلاوة بالعلم بالحروف وكيفية نطقها، مما يدفع الطالب إلى رياضة الألسن وتمرينها لإتقان نطقها، وهذا ظاهر جلي في عنوان كتابه الرعاية إذ يقول:«...و سميت(ما ألفت من) ذلك كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها» [14].

واتفق ما رامه القيسي مع ما ذهب إليه القرطبي [15] في بعض الصور الصوتية والنطقية للحروف، حيث يجعل اللحن الخفي لا يخل بالمعنى عكس اللحن الجلي الظاهر الذي يخل بالإعراب فيختل معه المعنى، لأنه تغير يلحق حركات الحروف فتتغير دلالة الألفاظ التي لأجلها وضعت، وقد يتغير معنى التركيب بأكمله لتغير أواخر الألفاظ، فاللحن الخفي عند القرطبي هو: «وإن وافق الجلي في طروء الخلل على اللفظ به إلا أن طروءه غير مخل بالمعنى ولا مقصر باللفظ عن الدلالة على ما كان يدل عليه من قبل، لأن اللحن الخفي هو مثل تكرير الراءات، وتطنين النونات، وتغليظ اللامات، وإسمانها وتشريبها الغنة، إلى غير ذلك من إخفاء المظهر وإظهار المخفي، وتشديد الملين، وتليين المشدد، مما سنستوفي في ذكره فيما يستقبل من هذا الكتاب. وذلك غير مخل بالمعنى ولا مقصر باللفظ عن الدلالة عليه» [16].

ويرى القرطبي أن حسن أداء الحروف أثناء القراءة من العرف، مما يجعلنا نستنتج أن علم التجويد جاء استجابة لفساد ما تعارفت عليه الأعراب في أداء الحروف إذ جعل ذلك مشتركا بين اللحن الخفي والجلي، ففي تعريفه لهما يقول أن اللحن الجلي هو: «...خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالمعنى و العرف» [17]. أما اللحن الخفي فهو:«يطرأ على الألفاظ فيخل بالعرف الجالب للرونق والحسن» [18]. والرونق والحسن لا يكون إلا بحسن التنقل بين الألفاظ بأداء حروفها أداء يميز كل صوت عن آخر مع مراعاة تجاورها، ولا يخرج هذا عن العرف الذي اصطلح عليه القرطبي.

ويلتقي الداني [19] مع القيسي في كون اللحن الخفي يتخلص منه في التعرف على الأصوات من حيث الصفات والمخارج فيسهل أداؤها، فالداني يتحدث عن اللحن الخفي ويعرفه تحت«باب ذكر الحروف التي يلزم استعمال تجويدها وتعمل بيانها وتلخيصها لتنفصل بذلك من مشبهها على مخارجها» [20].

وارتبط اللحن الخفي ارتباطا وثيقا بالتجويد وكان لا يدركه إلا علماء القراءة، وقد جمع ابن الجزري(ت833هـ) ما يتعلق بالتجويد في تعريفه له: «فالتجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وتصحيح لفظه وتلطيف النطق به في حال صيغته، وكمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف» [21].

فالمتمعن في التعريف يجد أن التجويد ما هو إلا فصاحة النطق بحروف العربية، بإعطاء الحروف حقوقها مقابل تركها في اللحن الخفي[22]. وقد ذكر ذلك ابن الجزري[23]حين وضح طبيعة التجويد قائلا:«فليس التجويد بتمضيغ اللسان ولا تقعير الفم، ولا تعويج الفك، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشد، ولا بتقطيع المد، ولا بتطنين الغنات، ولا بحصرمة الرآات، قراءة تنفر عنها الطباع، وتمجها القلوب والأسماع، بل القراءة السهلة العذبة الحلوة اللطيفة...ولا تخرج عن طباع العرب و كلام الفصحاء، بوجه من وجوه القراءات والأداء» [24].

فهذا معناه اتباع السليقة والفطرة اللغوية السليمة في نطق الحروف والوقف عليها في قراءة القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلا بالسماع ورياضة الألسن على النطق السليم للحروف مفردة ثم مركبة. وهذا في اعتقادي ما جعل علماء التجويد يقدمون تصورا شاملا وناجحا ومميزا في دراسة الأصوات مفردة ومركبة بالفصل بين دراسة مخارج الحروف وصفاتها ثم طبيعة هذه الحروف في التركيب، فصفات الحروف تتغير بمجاورتها لحروف أخرى، وتعطي لصفاتها تناغما وانسجاما يختلف حسب محل وجودها، ولعل الاهتمام بالجزء الأول من الدراسات هو الذي أفرز اهتماما أكبر بالجزء الثاني، وهو الغاية التي كان يصبو إليها بعض اللغويين وعلى رأسهم سيبويه حين قال أن غايته من وصف الحروف هو «لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه»[25].

لهذا يرى غانم قدوري أنه قد «تحققت لعلماء التجويد بذلك فرصة لدراسة أصوات العربية دراسة شاملة، لم تحقق للنحاة الذين تشغلهم دراسة الأصوات لمعالجة بعض القضايا الصرفية» [26]. فقد ضمن النحاة الأوائل كتبهم كل محاور الدراسات اللغوية وكانت الدراسات الصوتية في جلها مطية لشرح وتوضيح مسائل في النحو والصرف خاصة، كما عند سيبويه والمبرد، ولم يكن الحال كذلك عند المتأخرين عنهم كابن جني الذي نجد في مؤلفاته بعض التميز والتفرد والتخصص مثل كتابه المحتسب في القراءات وكذا سر صناعة الإعراب الذي يعد مقدمة رائدة في دراسة الأصوات، ومع ذلك تنسب هذه الكتب إلى الدراسات اللغوية العامة التي تنم عن عبقرية ابن جني في استخلاص المسائل اللغوية عامة سواء أكنت صوتية أم نحوية أم صرفية.

وإن كانت غاية اللغويين وعلماء التجويد واحدة إلا أن هؤلاء اعتمدوا الفصل بين مواضيع البحث التي تبدو لأول وهلة متداخلة وتنتمي إلى تخصص واحد وتحت عنوان واحد، فنجد للكاتب الواحد عناوين عدة كل واحد منها يعالج وجها من أوجه البحث في القراءة والتجويد، فمثلا مكي بن أبي طالب القيسي الذي يملك مجموعة كتب، كل واحد منها خصه بجانب دون

تداخل أو إخلال مما جعل رمضان عبد التواب يقر بأستاذية مكي بن أبي طالب في علم القراءة والتجويد [27].

ففي كتاب التبصرة يقول مكي بن أبي طالب:«فجمعت في هذا الكتاب من أصول ما فرق في الكتب، و قربت البعيد فهمه على الطالب، ...و الإتيان بتمام المعاني مع الاختصار ليكون تبصرة للطالب و تذكرة للعالم حتى قويت نيتي في كتاب قد علقت أكثره،...أذكر فيه كشف وجوه القراءات واختيار العلماء في ذلك، ومن قرأ بكل حرف من الصدر الأول وأقاويل النحويين وأهل اللغة، ...أسميه الكشف عن وجوه القراءات» [28]. فهو يبين في كل مؤلف الغاية والهدف من تصنيفه. ولا يختلف الأمر لكثير من معاصريه كأبي عمرو الداني في كتابه الإدغام الكبير وكذا التحديد والمحكم، فكل واحد من هذه المؤلفات وضعت لأجل غاية محددة.

وينم هذا كله عن فهم عميق لقضيا القرآن عامة والفصل بينها بدقة متناهية، ولا أدل على ذلك من تلك المصطلحات المتقاربة والمفاهيم المتعددة في علوم القراءة والتجويد.

أما عند علماء اللغة فقد كانت البداية مع الخليل بن أحمد حين أنشأ معجما يعتمد الترتيب الصوتي بدل الألفبائي، وقد يعود ذلك لإدراكه قيمة الصوت وأهميته، فاستعمل في ذلك مجموعة من المصطلحات تبدو لأول وهلة متداخلة ومترادفة مثل أحياز ومخارج، ولكنها في الواقع دقيقة دقة واضعها، وفي هذا الصدد وجد بعض الدارسين غموضا يحيط بها؛ فقد استعمل الخليل المبدأ[29]،المخرج [30] ،والمدرج[31]، والحيز [32]. ولكل مصطلح تحديد خاص به قد يتطابق في الاستعمال للوهلة الأولى.

ونجد عند الخليل مصطلحات لها علاقة بصفات الأصوات ومخارجها أيضا، فهي بحسب المخارج عنده تسعة: الحلقية واللهوية والشجرية والأسلية والنطعية واللّثوية والذلقية والشّفوية والجوفية أو الهوائية. وأما بحسب الصفات نجد مثلا صفة الميم المطبقة أهم صفة صريحة وجدت عند الخليل في كتابه العين لأنها «تطبق الفم إذا نطق بها» [33]. إلى جانب بعض المصطلحات التي استخلصها بعض الدارسين بعد الخليلكلفظ (أنصع ونصاعة)[34] ويقصد بهما الخليل الهمس والجهر، إضافة إلى (الاستعلاء والانخفاض) [35].

مقاربة المصطلح الصوتي بالموسيقى

ويعد ما قدمه ابن جني[36] في هذا المجال بيّن أضفى على البحث الصوتي بخاصة واللغوي عامة نظرة جديدة بالاعتماد على المقارنة في إصدار الأصوات، ومن ثم تحديد المصطلحات. فقد أدرك أن للصوت وطريقة إصداره خاصة في التجويد علاقة بفن الموسيقى، يقول:«..أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب، وإن لم يكن هذا الفن مما لنا ولا لهذا الكتاب به تعلق، ولكن هذا القبيل من هذا العلم أعني علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم» [37].

ويكون ابن جني بهذا قد مهد الطريق لدراسة الأصوات حيث ربطها بالزمن والنغم الموسيقيين. وتتجلى مقارنة الأصوات بالموسيقى عنده في تشبيه الجهاز النّطقي بالناي، إذ يقول: »شبه بعضهم الحلق والفم بالنّاي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه» [38].

واختلاف الأصوات عند ابن جني[39] في السماع كاختلاف نغمات وتر العود، حيث يقول: «ونظير ذلك أيضا وتر العود فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا فإذا حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتا آخر فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين ثم كذلك كلما أدنى أصبعه» [40]. ويشرح ابن جني الصورة بقوله: «الوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب كأول الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلا...وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات كاختلافها هنا» [41].

وبالنظر لما جاء به ابن جني يمكن القول أن علم الأصوات قد نضج واستوى معه، كما استقر معه المصطلح الصوتي رغم تنوعه واختلافه منذ نشأته، إذ نجد الخليل مثلا يستعمل موضع وحيز ومدرج[42]، أما سيبويه فيستعمل المخارج[43]، وابن دريد(ت321هـ) مجاري الحروف[44]، ويستعمل ابن جني المقاطع [45].

بين الصوت والتجويد

إذا كان الصوت هو الجرس، والنداء والصياح، من أجل التعبير والتواصل، فإن التجويد هو تحسين الصوت الصادر في القراءات القرآنية؛ فهو إذ الإتيان بأحسن ما في القراءة من أداء الحروف، ونطقها، وإخراجها، وإتباع أحكامها. و يفسر أبو عمرو الداني مصطلح التجويد دون تفصيل أو بحث عن معان تأصيلية للفظ غير توضيح معناه اللغوي بقوله: «ومعناه انتهاء الغاية في إتقانه، و بلوغ النهاية في تحسينه، و لذلك يقال : جود فلان في كذا، إذا فعل ذلك جيدا،و الاسم منه الجودة» [46].

واكتسى لفظ التجويد المعنى المصطلحي فغطى على المعنى اللغوي، ويُقابل لفظ التجويد غالبا بلفظ التحسين والذي يعد من الألفاظ المقابلة لمفهوم التجويد في عهد النبي(صلى الله عليه وسلم) مع مصطلحات أخرى استعملت في معناه، «مثل: الترتيل، والتحسين، والتزيين، والتحبير، وهي تستخدم في وصف القراءة حين تكون مستوفية لصفات النطق العربي» [47].

وفي الاصطلاح يتصل مفهوم التجويد بالقراءة والتلاوة، ويؤكد ذلك ابن الجزري في قوله: «فالتجويد هو حلية التلاوة وزينة القراءة» [48]. وهو أقصى درجات ضبط القراءة وتحقيق التلاوة، فهو حلية وزينة، لهذا أخر ابن الجزري الحديث عنه بعد التلاوة

والتحقيق، وعرفه بقوله: «هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظير هو تصحيح لفظه وتلطيف النطق به على حال صيغته وكمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف ولا تكلف» [49].

لقد توصل ابن الجزري إلى أن التجويد ما هو إلا قراءة بالتحقيق، والذي يرتبط غالبا بالترتيل، وهذا ما نجده صريحا في قوله: «فأعطوا كل حرف حقه ونزلوه منزلة وأصلوه مستحقه، من التجويد والإتقان والترتيل والإحسان» [50].

ويقرن الدارسون مصطلح التجويد بالقراءة والقراء وقد تأخر استعماله إلى القرون المتأخرة وبالضبط إلى الربع الأول من القرن الرابع للهجرة، و ينسب ذلك إلى أبي مزاحم الخاقاني (ت325هـ) [51].

لقد كان مصطلح التجويد غائبا بدليل غيابه عن أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) كما لم يستعمله القرآن الكريم، و حكمة هذا الغياب يقابله عدم النضج المصطلحي من ناحية، ثم عدم إدراج التجويد في حكم الترتيل بالنسبة لقارئ القرآن، وإن كان مصطلح التحسين حاضرا، وهو اللفظ الذي أورده الخاقاني في قصيدته مقابلا للتجويد.

ويلتقي علماء اللغة والتجويد في المصطلحات المتعلقة بصفات الحروف ومخارجها، وإن كان علماء اللغة اهتموا بالصوت المنفرد فإننا نكتشف أن علماء التجويد اهتموا بالفنولوجيا(phonologie) أكثر من الفونيتيكا (phonétique)، إلا أن هذه كانت أساس الدراسة عندهم لأنها أساس فهم التجاور الصوتي في القراءات القرآنية.

لقد أدرك علماء العربية الغاية من اختلاف الصفات والمخارج في الحروف. فلولا ذلك لتشابهت أصوات البشر وتساوت مع الحيوانات، فالتطابق في الصفات والمخارج معا غير موجود في الحروف لأن ذلك يجعل الأصوات كلها على سماع واحد لأن لفظها أصلا واحد. فإما أن يكون الاتفاق في الصفات والاختلاف في المخارج، أو الاختلاف في الصفات والائتلاف في المخارج، حتى يكون وقعها في السمع مختلفا.يقول القيسي[52]؛ «...فلولا اختلاف صفات الحروف ومخارجها وطباعها التي خلقها الله -جل ذكره- عليها، ما فهم الكلام، ولا علم معنى الخطاب، ولكانت الأصوات ممتدة لا تفهم من مخرج واحد، وعلى صفة واحدة كأصوات البهائم» [53]. فالتطابق في الصفات والمخارج معا غير موجود في الحروف لأن ذلك يجعل الأصوات كلها على سماع واحد لأن لفظها أصلا واحد. فإما أن يكون الاتفاق في الصفات والاختلاف في المخارج، أو الاختلاف في الصفات والائتلاف في المخارج، حتى يكون وقعها في السمع مختلفا [54].

وتعد صفات الحروف عند المجودين ذات أهمية قصوى لما لها من دور في تناسق اللفظ، وأداء المعنى، وجودة النطق، وحسن التلاوة. ويعد القيسي وأبو عمرو الداني من الرواد الأوائل في إرساء توجه علماء التجويد في البحث حول صفات الحروف بمنظور يضفي الكثير من الجديد في الدراسات الصوتية.

ويمكن اعتبار عمل القيسي دراسة في المصطلح، حيث تتبع المعنى ومناسبة التسمية، إذ يذكر ذلك في قوله: «وهذه الصفات والألقاب إنما هي طبائع في الحروف خلقها الله عز وجل على ذلك، فسميت تلك الطبائع التي فيها بما نذكر من الألقاب اصطلاحا، ولقبت به اتفاقا، مع ما يسعد ذلك من معنى الاشتقاق الذي نذكره إن شاء الله تعالى» [55].

وقد تعامل القيسي مع صفات الأصوات باعتبارها مصطلحات تحمل دلالات معينة أصيلة فيها؛فلا يقدم صفة على أخرى، ولا يفاضل بينها، بل يعدها سمات في الحروف خلقت لتتمايز في السمع مع اختلاف مواضع صدورها، فإن انتفت الصفات وتوحدت المخارج صارت بلفظ واحد، فلا يفهم القصد منها [56].

فاتحدت الكثير من المصطلحات بين علماء اللغة والتجويد، إلا أن الاختلاف كان في نظرة كل فريق لهذه المصطلحات ومن ثم تعريفه لها [57]. ويمكن اعتبار الجهود بين الفريقين متكاملة لأن الأصل في الدراسة الصوتية هو القرآن الكريم. فأما علماء اللغة فكانت غايتهم حماية القرآن من التحريف واللحن وهو ما نجده عند علماء التجويد أيضا إضافة إلى أن هؤلاء حاولوا تحسين القراءة بحسن نطقها واستيفاء صفاتها الفردية والجوارية. وقد استطاعوا المحافظة على القراءات القرآنية التي كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تواترا في النطق الشفاهي. لهذا نجد اهتمامهم انصب على بعض الصفات النطقية غير المثبتة كالإدغام والإمالة والتضخيم؛ إذ ابتعدوا عما يعتري الأصوات في مجاورة أصوات أخرى أي السياق الصوتي من نسخ وتغير قد يعتريها بالتقادم من جهة ومن تغير الأصوات من جهة أخرى وهو ما يسمى عند المحدثين بالفونيم (phonème) الألوفون (allophone)[58].

قانون القوة والضعف

أشرنا سابقا إلى أن القيسي لم يفاضل بين صفة وأخرى، ولا بين مصطلح وآخر؛ لكن في المقابل نجد عنده وعند علماء التجويد قانون القوة والضعف وهو عبارة عن مقابلة صفات الأصوات بين القوة والضعف [59]. ونجد لهذا القانون آثارا في الدراسات اللغوية القديمة ولكن في اللفظ؛ وممن أثاروا ذلك ابن جني [60]، حيث يعالج أثر تلك المقابلة بين الأصوات والكلمات.

لقد صنف علماء التجويد صفات الحروف بين القوة والضعف، ويدخل هذا في إطار التقابل بين الصفات، وينسب غانم قدوري فضل السبق في هذا إلى صاحب الرعاية، وتبعه في ذلك الكثير من جاء بعده إذ« لا نجد في كلام علماء العربية شيئا واضحا ومفصلا عن موضوع قوة الصوت وضعفه، ويبدو أن علماء التجويد هم أول من بحث هذا الموضوع على نحو مفصل، وربما كان مكي بن أبي طالب هو واضع نظرية قوة الحروف وضعفها لدى علماء التجويد...ويكاد كلام الذين جاءوا من بعده يكون اقتباسا منه» [61]. فلم يضيفوا أشياء ذات أهمية

لنظرية القوة والضعف في الصوت، والتي تفسر مسائل تركيبية كثيرة في الأصوات وتجانسها في البنيات اللفظية، «وغاية ما أضافوه [علماء التجويد] تقسيم الصفات إلى قوية وضعيفة ومتوسطة» [62].

إن التجاور بين الأصوات في البنيات اللفظية يظهر قيمة الأصوات، فيوضح ذلك مكي بن أبي طالب بإبراز الأصوات ذات التأثير الأكبر على ما يجاورها من أصوات في حالة قوتها، كما تتأثر بها في حالة الضعف. وقد استند مكي بن أبي طالب على هذه الفكرة في شرح الإدغام خاصة في كتابه الكشف.

كما يوضح نظرية القوة والضعف في الحرف نفسه من خلال تجمع مجموعة صفات قوة أو ضعف في الحرف؛ إنه يربط قوة الحرف بقوة صفاته، ويمثل لذلك مثلا بحرف الطاء، فهي غاية في القوة، لكونها مجهورة ومطبقة ومستعلية وشديدة [63].

لقد أعطى مكي بن أبي طالب أهمية قصوى لتوضيح صفات الحروف، ولعل الغاية من ذلك الإبانة عن سر القوة والضعف. ونعتقد أن قوة الحرف في قوة إسماعه وضعفه عكس ذلك. إن إدراك الضعف والقوة في الحروف منفردة كانت أم مركبة يعين على حسن إخراج هذه الأصوات ومن تم حسن وإتقان تجويدها. ويذهب غانم قدوري إلى أن القوة والضعف المقصود يكمن في الإسماع ولا علاقة لذلك بقوة الحرف وضعفه عند علماء التجويد.

في الختام لقد أثارت هذه الورقة البحثية مجموعة من النقاط وطرحت عددا من التساؤلات حول المصطلح الصوتي بين اللغويين وعلماء التجويد، أهمها ما مدى التقارب في صياغة المصطلح الصوتي من جهة ومدى الاختلاف بينهما انطلاقا من الخلفية العلمية والمنهجية لكل منهما؛ وهو موضوع يحتاج إلى بحوث أخرى، وهذا لدقة المنهج وجدية البحث وتنوع المصطلح عند الفريقين.

الهوامش

1- للاستزادة والتفصيل يراجع الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس للهجرة، أطروحة دكتوراه، إعداد سعاد آمنة بوعناني، جامعة وهران، ص 10 وما بعدها.

2- يراجع عمل ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب.

3- يراجع مثلا الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار المعرفة، بيروت،93/1؛ والمحكم للداني، تحق/ عزة حسن، مط دمشق1960،ص13.

4- يراجع معجم العين للخليل، تحق/عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد 1985/1386، ص56 وما بعدها.

5- يراجع الكتاب لسيبويه، تحق/ عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1395هـ - 1975م، 433/4 و ما بعدها.

6- المحكم في نقط المصاحف أبو عمرو الداني(ت444هـ)، تحق عزة حسن، مط دمشق 1960، ص 13. ويراجع الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، 93/1. وقد ورد النص فيه برواية أخرى وهي:«إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه، وإن ضممت فمي فأنقط بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت».

7- ينظر الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، غانم قدوري ص48.

8- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، غانم قدوري ص50.

9- الموضح في التجويد، تأليف عبد الوهاب بن محمد القرطبي(ت461هـ) ،تحق ، الشيخ جمال محمد شرف ، ط1، سنة 1416هـ - 2005م ، دار الصحابة للتراث بطنطا ص3.

10- ينظر التحديد ص117.

11- الموضح في التجويد ص8.

12- الرعاية، ص42.

13- يراجع الرعاية ص 42و 43.

14- الرعاية ص43.

15- يراجع الموضح ص14.

16- الموضح ص14.

17- الموضح ص11.

18- الموضح ص11.

19- يراجع التحديدص118.

20- التحديد ص118.

21- النشر 212/1.

22- ينظر الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، غانم قدوري ص58.

23- يراجع النشر 213/1.

24- النشر213/1.

25- الكتاب 436/4.

26- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري ص 59.

27- ينظر مقدمة المحقق لكتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع و عللها و حججها،لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ،تحق،د/محي الدين رمضان، ط 5 ، 1417هـ- 1997م،مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، 15/1.

28- التبصرة في القراءات، لأبي محمد بن أبي طالب القيسي، حقق نصه و علق حواشيه، د/ محي الدين رمضان ، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، ط1، 1405هـ 1985-م، الكويت، ص26.

29- ينظر العين 65/1.

30- ينظر العين 57/1.

31- ينظر العين 57/1.

32- ينظر العين 64/1

33- العين 65/1

34- ينظر مقدمة تهذيب اللغة، أبو منصور الزهري، تحق بسام عبد الوهاب الجابي، ط1، 1985، دار البصائر، دمشق، سوريا، ص 60

35- يراجع في طبيعة هذه المصطلحات وأنواعها الدرس الصوتي ص 16 وما بعدها

36- تطرق الكثير من العلماء للصوت والموسيقى وعلى رأسهم اخوان الصفا قبل ابن جني وابن سينا من بعده لكن يبقى تناول ابن جني لغويا ملموسا باعتباره عالم لغة في حين تبقى أعمال اخوان الصفا في إطارالفلسفة وقد تبعهم ابن سينا في تصور الفهم الموسيقي وربطه بالصوت.

37- سر صناعة الإعراب، 9/1.

38- سر صناعة الإعراب، 8/1 و9

39- سر صناعة الإعراب 9/1.

40- سر صناعة الإعراب، 9/1

41- سر صناعة الإعراب، 9/1

42- ينظر كتاب العين 65/1

43- ينظر الكتاب 434/4.

44- ينظر جمهرة اللغة، محمد بن الحسن الأزدي بن دريد، طبعة حيدر آباد، الدكن، الهند، 1344هـ، 8/1.

45- ينظر سر صناعة الإعراب 6/1.

46- التحديد في الإتقان و التجويد، للداني ص70.

47- الدراسة الصوتية عند علماء التجويد، د/غانم قدوري الحمد، ط1986،1م-1406هـ، مط الجلود، بغداد،العراق،ص14.

48- النشر في القراءات العشر 212/1.

49- النشر في القراءات العشر212/1.

50- النشر في القراءات العشر 211/1.

51- ينظر الدراسة الصوتية عند علماء التجويد ص15، و غاية المريد في علم التجويد ص22.

52- ينظر الرعاية ص91 وص117.

53- الرعاية ص 116و117.

54- ينظر الرعاية ص91 وص117.

55- الرعاية ص91 و92.

56- ينظر الرعاية ص91.

57- يراجع الدرس الصوتي ص 138 وما بعدها

58- يراجع الدرس الصوتي ص 281

59- المرجع السابق ص 282 إلى 284

60- المرجع السابق ص 284 و 285

61- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص328.

62- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص330.

63- ينظر الرعاية ص93.

المصادر والمراجع

- أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ، أشرف على تصحيحه و مراجعته للمرة الأخيرة فضيلة الأستاذ علي محمد الضباع، شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

-ابن جني أبو الفتح عثمان (1993م/1413هـ)، سر صناعة الإعراب،دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق،

ط2، سوريا.

- ابن منظورجمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق مع تصويبات وفهارس متنوعة. المؤسسة المصرية للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

- إبراهيم أنيس(1975 م)، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، مصر.

- أحمد أمين (1952م/1371هـ)، ضحى الإسلام ، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، مصر.

-الأزهري أبو منصور (1985 م)، تهذيب اللغة، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابين، دار البصائر، ط1، دمشق، سوريا.

- الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب ،(1954 م)، ، إعجاز القرآن، (ت403هـ)، تحق/ أحمد السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط5. مصر.

-بوعناني سعاد آمنة (2011م)، الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس للهجرة، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران.

- حسام سعيد النعيمي (1980 م)، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني،دارالرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، العراق.

- الخليل بن أحمد الفراهيدي (1967م/1386هـ)، العين، تحق د.عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، العراق.

- الداني (1988م/ 1407 هـ)، أبو عمرو عثمان بن سعيد التحديد والإتقان في التجويد، (ت444هـ) الأندلسي، دراسة و تحقيق، د/غانم قدوري الحمد، ط1، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، طبع و نشر و توزيع مكتبة دار الأنبار، الرمادي، العراق.

- سيبويه،أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1975م/1395هـ)،الكتاب، تحق عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

- عبد الصبورشاهين (1987 م/1408هـ)، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي عند أبي عمرو بن العلاء، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، مصر.

-عبد العزيز الصيغ (1998م)، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ، دار الفكر، دمشق، سوريا.

- عبد الوهاب بن محمد القرطبي (2005م/1416هـ)، الموضح في التجويد، تحق الشيخ جمال محمد شرف ، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، مصر.

- العبيديشعبان عوض محمد (1999 م)،، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه(ت180هـ)، ،منشورات جامعة قان يونس، ط1بنغازي، ليبيا.

- عطية قابل نصر (2000م/1420هـ)، غاية المريد في علم التجويد، ، توزيع دار التقوى، ط6، القاهرة، مصر.

- غانم قدوري الحمد (1968م/1406 هـ)، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، ط1، بغداد، العراق.

- القيسي (1985 م)، التبصرة في القراءات،تحقيق محي الدين رمضان، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1، الكويت.

- القيسي (1997م/1417هـ)، الكشف عن وجوه وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحق/ محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت، لبنان

- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (1385هـ)، المقتضب، تحق/محمد عبد الخالق عظيمة، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، مصر.

- محمود السعران (1962م)، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، مطبعة دار المعارف، ط1، مصر.

- محمد أحمد معيد (1998/1418هـ)، الملخص المفيد في علم التجويد، ، مط دار السلام، القاهرة، ط4، مصر.

- مكي بن أبي طالب القيسي (1973 م/1393هـ)، الرعاية لتجويد القراءة و تحقيق لفظ التلاوة، تحق، أحمد حسن فرحات، توزيع دار الكتب العربية ، مط دار المعارف للطباعة، دمشق، سوريا.

- هنري فليش (1968 م/1388 هـ)، التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب، ، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر.